**الحداثة في الأدب العربي**

1. **سامية إدريس**

**ملخص:**

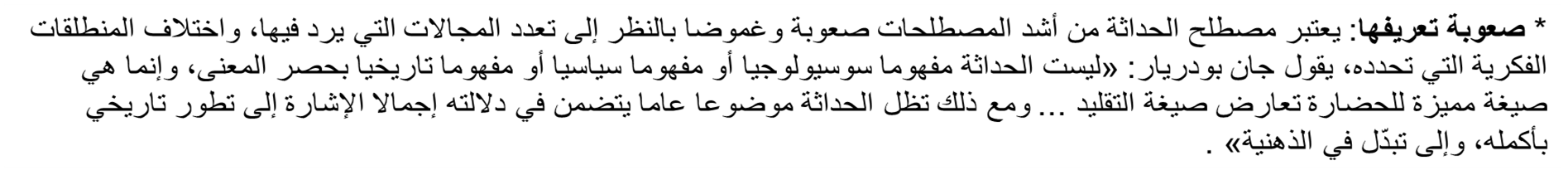
**تعريفات الحداثة**

**\*** لغة: ورد في لسان العرب: «الحديث؛ نقيض القديم، والحدوث: نقيض القدمة حدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة، وأحدثه فهو محْدث وحديث وكذلك استحدثه»، فقد اشتقت كلمة "حداثة" من مادة "ح. د. ث." التي تتضمن دلالة وقوع الفعل أو ظهور الظاهرة التي لم تكن موجودة أو متوقعة من قبل.

\* يشير الناقد جابر عصفور إلى أن الصيغة المصدرية التي تنطوي على المصطلح "حداثة" نادرة الاستعمال في التراث العربي، حيث شاعت حينها مصطلحات أخرى مثل "المحدث" و"المحدثين"، أما صيغة "الحداثة" فهي قرينة استخدام معاصر لا يتجاوز ربع قرن، يرتبط بتأكيد جذرية ثورة القصيدة العربية المعاصرة، ويرتبط باجتهاد معاصر في تأسيس مصطلح جديد يقابل المصطلح الأجنبي Modernity أو Modernism.

\* اصطلاحا: يعتبر الدارسون بودلير ( 1821-1861) أقدم من عرّف الحداثة بقوله: «ما أعنيه بالحداثة: هو العابر والهارب، ونصف الفن الذي يكون نصفه الآخر هو الأبدي والثابت» حيث ربط كل من بودلير ورامبو الحداثة بالتطور المادي الذي أدّى في انعكاساته السلبية إلى انحطاط قيمة الإنسان، وقد اتخذا منها مصدرا لإنتاج جمالية القبح.

\* لازمنية الحداثة: يعدّ بودلير أول من جرّد الحداثة من طابعها الزمني ليجعل منها مفهوما ذا دلالة نوعية، فالحداثة لدى بودلير لا «تهدف إلى التحديد الكمي لفترة تاريخية معينة من أجل إقامة التضاد بينها وبين فترات أخرى، وإنما أصبحت تهدف إلى الدلالة النوعية على حالة ما (أو شرط ما)، لم يعد الحاضر موجودا بالقياس إلى الماضي، وإنما أصبح موجودا بذاته ولذاته. وهكذا أصبح التاريخ سلسلة متواصلة من الحداثات (...) ولا أقول ذلك بمعنى أن الحداثة تخرج من الزمن، وإنما بمعنى أنها لم تعد خاضعة له.



\* **شمولية الحداثة:** فالحداثة ظاهرة شاملة ارتبطت بسياق تاريخي عايشته المجتمعات الأوربية وأفضى إلى هدم سلطة الكنيسة وقيم الماضي واحلال مركزية العقل والتفكير العلمي والتطور التكنولوجي. إذن، يطلق مصطلح الحداثة عموما بوصفه مصطلحا حضاريا على مسيرة المجتمعات الغربية منذ عصر النهضة إلى اليوم، ويغطي مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

\* **الحداثة الأدبية** جاءت كرد فعل على الفكر السائد في القرن التاسع عشر والاتجاهات الأدبية التي بدأت تتزعزع كالرومنسية، وقد بلغت الحداثة الأدبية أوجها في الثلث الأول من القرن العشرين، ووصل صداها إلى الثقافة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين.

\*ويقول جابر عصفور عن **مستويات (أبعاد) الحداثة:** « إذا كانت الحداثة في الفكر والعلم ابتداعا للمعرفة ولأدوات انتاجها فإن الحداثة في الآداب والفنون ابتداع لرؤيا جديدة ولأدوات إنتاج هذه الرؤيا في آن. إنها فعل مكتمل لوعي متحد ينطوي على قيمة إيجابية، هذه القيمة نتعرفها في الضدية الجذرية التي تواجه اتباعية الموروث، وتواجه غياب الحرية عن الواقع، ومنطق التبعيّة للآخر أيا كان هذا الآخر. الضدية التي تقرن الحرية بالعدل، وتقرن فعل الوعي الذي تنسب إليه بفعل التثوير الدائم لأدوات إنتاج الفن، وإنتاج المعرفة بالواقع والكون على السواء. لذلك فإن الحداثة رؤيا شاملة من حيث هي موقف من واقعها الخاص أو من حيث كونها العام» . تجتمع في هذا التصور الذي يقدمه جابر عصفور أبعاد الحداثة من حيث هي رؤيا وموقف من الذات والآخر، وعي ضدي يمارس النقد والمساءلة المستمرين، وهي تتجلى على عدة أصعدة؛ فكرية وعلمية من حيث كونها بحثا متواصلا وتطلعا دؤوبا للاكتشاف والمعرفة في خدمة الإنسان، واجتماعية وسياسية من حيث هي إعادة صياغة مستمرة لنظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية نحو ما يحقق مزيدا من الحرية والكرامة للإنسان في المجتمع، وفنية أدبية من حيث هي إبداع رؤيا متكاملة تنتج عن رؤيا وموقف من الذات والعالم يظهر في استحداث أدوات تعبيرية جديدة تصوغ هذه الرؤيا وهذا الموقف.

**الحداثة، والمصطلحات المجاورة لها**

**(النهضة، التحديث، الحداثية والمعاصرة)**

**الحداثة والنهضة:**

تحقيق الحداثة يعادل تحقيق النهضة، فكلاهما يعرفان بهيمنة العقل والعلمانية والفردية والمدنية وحقوق الإنسان.

سبقت النهضة تاريخيا قيام الحداثة.

جوهر الحداثة هو رفض التقليد والنموذج أما النهضة فقد قامت على تقليد النموذج اليوناني الروماني في الغرب، وإحياء علوم الدين واللغة كما استقرت عند "السلف الصالح"، ونموذج القصيدة العمودية المركبة التي اتخذت من المعلقات الجاهلية مثلا أعلى في الأدب العربي.

**الحداثة والتحديث:**

\* يمثل التحديث الجانب العملي من الحداثة، ومظهرها المادي من مكتسبات تكنولوجية تستخدم في شتى مناحي الحياة,

\* هناك تلازم ضروري بين الحداثة والتحديث، فالحداثة هي التي تؤدي إلى التحديث وبدون تحديث لا يكون هناك تجسيد ملموس للحداثة

\* لا يمكن أن تتم حداثة دون تحديث، لكن التحديث لا يؤدي بالضرورة إلى تحقق الحداثة، كما هول حال المجتمعات العربية التي بدأت مسيرة التحديث منذ القرن الماضي لكن ذلك لا يفضي تلقائيا إلى اكتساب الحداثة بوصفها روح العلم والابتكار والإبداع والحرية والعقلانية.. الخ.

أحدثت **ترجمة مصطلحات الحداثة**، الحداثية والمعاصرة إلى اللغة العربية التباسا كبيرا بينها، حيث يظهر هذا الاضطراب حتى عند الباحث نفسه، فالدكتور مصطفى هدارة -على سبيل المثال- يترجم Modernity / Modernité بكلمة معاصرة تارة وعصرية تارة أخرى، ويترجم كلمة Modernism/Modernisme بـ"الحداثة، أما محمد برادة، فيترجم Modernité بـ"الحداثة" و Modernisme بـ"العصرية"، في حين يترجم كمال أبوديب Modernism بـ"الحداثية" و Modernity بـ"الحداثة"...............الخ. وللخروج من حالة الالتباس التي أحدثتها فوضى الترجمة وتداخل المفاهيم، نقترح – في سياق هذه المحاضرة- التفريق بين المصطلحات كما يلي:

\_ "الحداثة" ترجمة لـ"Modernité/Modernity"

\_ "الحداثية" ترجمة لـ"Modernisme/Modernism"

\_المعاصرة والمعاصر ترجمة لـ"Contemporanéité/Contomporaneity" و"Contemporain/Contemporary".

**الحداثة والحداثية:** تختلف الحداثة عن الحداثية، كما يوضح كمال أبو ديب، في كون الأولى وصفا لسيرورة عامة عرفتها المجتمعات الغربية في سياق تاريخي معين أدت إلى التغيير الجذري والانتقال من مرحلة إلى أخرى، . أما الحداثية فهي تحمل صفة المذهب أو المدرسة، وتنطبق على بعض الحركات الأدبية المتطرفة التي شهدتها أوربا خاصة في مرحلة ما بين الحربين.

**الحداثة والمعاصرة:** لا يفرق جابر عصفور بشكل قطعي بين الحداثة والحداثية، لكنه يفرّق بوضوح بين الحداثة والمعاصرة، ومعيار التفريق بينهما هو في كون المعاصرة مجرّد إطار زمني محايد، أما الحداثة فهي فعل في الزمن. يقول عن الحداثة: « إنها تنصرف إلى الفعل؛ لأن "الحداثة" قرينة الإحداث للشعر في العصر. وذلك على عكس "المعاصرة" التي تنصرف إلى مجرد الوجود في الزمن».

**الحداثة في مجلة شعر**

\* تنسب حركة مجلة "شعر" إلى مجلة "شعر" التي صدر أوّل عدد منها في بيروت سنة 1957 تحت رئاسة الشاعر يوسف الخال، ولكن سرعان ما تأكّد أن الأمر يتجاوز حدود مجلّة أدبية إلى تأسيس حركة شعريّة، قادها أشهر أقطاب الحداثة الشعريّة في العالم العربي، منهم: أدونيس وأنسي الحاج ومحمد الماغوط وخالدة سعيد وأسعد زروق جبرا إبراهيم جبرا، توفيق صائغ، فؤاد رفقة ...وغيرهم. وقد عملت هذه الحركة على بلورة مفهوم خاص للحداثة الشعرية عبّرت عنه بمجهودات نظرية وإبداعية، ما زالت تتفاعل في القصيدة العربية إلى يومنا هذا.

\* أسس الحداثة الشعرية عند يوسف الخال:

* 1. التعبير عن التجربة الحياتية، على حقيقتها، كما يعيها الشاعر بجميع كيانه- أي بعقله وقلبه معا.
  2. استخدام الصورة الحية – من وصفية أو ذهنية- حيث استخدم الشاعر القديم التشبيه و الاستعارة والتجريد اللفظي والفذلكة البيانية، فليس لدى الشاعر كالصورة القائمة في التاريخ أو في الحياة حولنا، وما يتبعها من تداع نفسي يتحدى المنطق ويحطم القوالب التقليدية.
  3. ابدال التعابير والمفردات القديمة التي استنزفت حيويتها بتعابير ومفردات جديدة مستمدة من صميم التجربة ومن حياة الشعب.
  4. تطوير الإيقاع الشعري العربي وصقله على ضوء المضامين الجديدة، فليس للأوزان التقليدية أية قداسة.
  5. الاعتماد في بناء القصيدة على وحدة التجربة والجو العاطفي العام، لا على التتابع العقلي والتسلسل المنطقي.
  6. الإنسان في ألمه وفرحه، خطيئته وتوبته، حريته وعبوديته، حقارته وعظمته، حياته وموته، هو الموضوع الأول والأخير. كل تجربة لا يتوسطها الإنسان هي تجربة سخيفة مصطنعة لا يأبه لها الشعر الخالد العظيم.
  7. وعي التراث الروحي والعقلي العربي، وفهمه على حقيقته، وإعلان هذه الحقيقة وتقييمها كما هي، من دون خوف أو مسايرة أو تردد.
  8. الغوص إلى أعماق التراث الروحي والعقلي الإنساني، وفهمه وكونه والتفاعل معه.
  9. الإفادة من التجارب الشعرية التي حققها أدباء العالم. فعلى الشاعر الحديث أن لا يقع في خطر الانكماشية، كما وقع الشعراء العرب قديما بالنسبة للأدب الإغريقي.
  10. الامتزاج بروح الشعب لا بالطبيعة. فالشعب مورد حياة لا تنضب. أما الطبيعة فحالة آنية زائلة.

**بيانات الحداثة العربية**

**البيان في دلالته الاصطلاحية المعاصرة**، مصطلح تنضوي تحته «نصوص غالبا ما تكون موجزة، منشورة بكراس أو جريدة أو مجلّة، باسم حركة سياسية فلسفية، أدبية، فنية: [مثلا] بيان الحزب الشيوعي، بيان الرمزيين، بيان المستقبليين..». وهي خطابات وأفعال لغوية غرضها الإعلان عن رؤية معيّنة للمستقبل، والعمل على الانتقال من وضع إلى وضع آخر مخالف له، فالبيان «عمل استراتيجي يشكّل برنامج عمل للجهة التي تصدره، بوصفه الإطار النظري والإجرائي لسياستها (كل أنواع السياسات). إنه نظرية في المجال الذي يصدر فيه، وتصوّر شامل قائم على تعيين المسائل الجوهريّة لا التفصيليّة، وبالتالي، فالبيان مشروع مستقبلي، إنه رؤية استشرافية، يحمل إرادة في التخلص من نسق فكري إلى آخر«.

وبذلك يكون **البيان الأدبي** نصّا ينتجه شاعر أو كاتب أو ناقد أو مجموعة منهم، في سياق تاريخي ثقافي مخصوص يحمل نوازع التحوّل والتغيير، فيأتي البيان الأدبي ليعبّر عن هذه الحاجة الملحّة لتجاوز الواقع الأدبي السائد، والبحث عن تجارب جديدة تبث الحياة في مفاصله من جديد.

«يظهر البيان إرهاصا بتجربة جديدة في الكتابة الأدبية كما أنه يعبّر عن لحظة انفجارية فكرية ووجدانية مخزّنة في الذات، تنبثق من بين أعطاف نسق ثقافي يبدو في نظر كاتب البيان نسقا قاصرا مترهّلا، عاجزا عن الفعل والفاعليّة، ومن ثم يتميّز البيان الأدبي بكونه إعلانا عن ميلاد فعل أدبي جديد».

"**بيان الحداثة" لأدونيس:** كتب أدونيس بيان الحداثة عام 1979م، وقد اتخذ فيه موقف الناقد للحداثة والمفكك لأوهامها، وهي مجموعة من المآخذ والتصورات الخاطئة التي وقع فيها الحداثيون العرب، حسبه، في تعاطيهم مع الحداثة وفهمهم لها.

**أوهام الحداثة :** تتمثل هذه المآخذ في خمسة أوهام هي:

1, **وهم "الزمنية":** فهناك، كما يقول أدونيس، من «يميل إلى ربط الحداثة بالعصر، بالراهن من الوقت». إن حداثة الإبداع الشعري عنده، لا تنسجم بالضرورة مع حداثة الزمن، «بل قد تكون ضدّه للحظة راهنة وقد تستبقه أو تتجاوزه. بهذا التحديد يكون مفهوم أدونيس للحداثة متخلصا من وهم الزمنية ومتحررا جزئيا من ميتافيزيقا التقدّم التي ترى أن ما يحدث الآن متقدم على ما حدث غابرا، وأن الغد متقدم على الآن. وبتفكيك وهم الزمنية تنهض الذات المتلفظة في البيان بإعادة ترتيب شجرة الأنساب الشعرية، فيصبح امرئ القيس وأبو تمام "أكثر حداثة" من شوقي ونازك الملائكة»

2, **وهم "المغايرة":** والذي يذهب فيه أصحابه إلى القول إن التغاير مع القديم موضوعات وأشكالا هو الحداثة. فالحداثة لا تشكل قطيعة جذرية مع التراث، وهي بهذا المعنى «كمثل أفق يهيمن بأضوائه وبأبعاده على فضاء الحاضر دون أن يمحو فضاء الماضي"، وان تكون حديثا وفق هذه الرؤية يقتضي أن "تحيا في بهاء القديم وفي طاقاته الفنية التي لا تستنفذ" بحسب تعبير أدونيس»

3, **وهم "المماثلة":** ففي رأي بعضهم أن الغرب هو مصدر الحداثة، وتحقيقها يمر عبر التماثل معه. بناء عليه، تغدو معايير الحداثة في الغرب هي معايير الحداثة في غيره. «إن الشعر الصادر عن هذا الوهم ليس إلا "الوجه الأكثر إغراقا في ضياع الذات لشعر المماثلة مع الموروث التقليدي". وفي كلا الموقفين، لا يكتب الشاعر ذاته الواقعية الحية "وقد وعت فرادتها وخصوصيتها" وإنما يكتب ويعيش في جسد مستعار»

4,**وهم "التشكيل النثري":** ويقصد به أدونيس أولئك الذين يكتبون الشعر نثرا معتقدين بذلك أنهم يحققون تماثلا كاملا مع الكتابة الشعرية الغربية، وتغايرا كاملا مع الكتابة الشعرية العربية، مما يشكل بالنسبة لهم ذروة الحداثة. يقول أدونيس: «ويذهبون في رأيهم إلى القول بنفي الوزن ناظرين إليه كرمز لقديم يناقض الحديث. إن هؤلاء لا يؤكدون على الشعر بقدر ما يؤكدون على الأداة. النثر كالوزن أداة، ولا يحقق استخدامه بذاته الشعر. فكما أننا نعرف كتابة بالوزن لا شعر فيها، فإننا نعرف أيضا كتابة بالنثر لا شعر فيها، بل إن معظم النثر الذي يكتب اليوم على أنه شعر لا يكشف عن رؤية تقليدية وحساسيّة تقليدية وحسب، وإنما يكشف أيضا عن بنية تعبيرية تقليدية، وهو لذلك ليس شعرا، ولا علاقة له بالحداثة».

5, **وهم "استحداث المضمون":** وفحواه ادعاء البعض أن كل نص شعري يتناول إنجازات العصر وقضاياه نص حديث، والواقع أن هناك شعراء غير حداثيين تناولوا هذه القضايا برؤيا تقليدية وشكل فني تقليدي مثل الزهاوي والرصافي وشوقي.

**مقاطع من "بيان الحداثة" لأدونيس**

يقول أدونيس في **تعريفه للحداثة:**

« إذن، ما حقيقة الحداثة؟

لا أزعم أن الجواب عن هذا السؤال أمر سهل، فالحداثة في المجتمع العربي إشكالية معقّدة، لا من حيث علاقاته بالغرب وحسب، بل من حيث تاريخه الخاص أيضا. بل يبدو لي أن الحداثة هي إشكاليته الرئيسية.

لكن، مع أن الجواب ليس سهلا، فإنني سأحاول أن أتلمّس جوابا ما. من أجل ذلك، أودّ أن أشير أوّلا إلى أن الحداثة الشعرية العربية لا تقيّم إلا بمقاييس مستمدّة من إشكالية القديم والمحدث في التراث العربي، ومن التطور الحضاري العربي، ومن العصر العربي الراهن، ومن الصراع متعدّد الوجوه والمستويات، الذي يخوضه العرب اليوم.

وأود ثانيا، أن ألجأ إلى شيء من التبسيط، فأقسم الحداثة إلى ثلاثة أنواع: الحداثة العلميّة، وحداثة التغّيرات الثورية ـ الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية والحداثة الفنيّة.

علميّا، تعني الحداثة إعادة النظر المستمرّة في معرفة الطبيعة للسيطرة عليها، وتعميق هذه المعرفة وتحسينها باطّراد.

ثوريا، تعني الحداثة نشوء حركات ونظريات وأفكار جديدة، ومؤسسات وأنظمة جديدة تؤدي إلى زوال البنى التقليدية القديمة في المجتمع وقيام بنى جديدة.

وتعني الحداثة فنّيا، تساؤلا جذريا يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية، وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل. وشرط هذا كله الصدور عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون.

تشترك مستويات الحداثة هنا، مبدئيا، بأنواعها الثلاثة في خصيصة أساسية هي أن الحداثة رؤيا جديدة، وهي جوهريا، رؤيا تساؤل واحتجاج: تساؤل حول الممكن، واحتجاج على السائد. فلحظة الحداثة هي لحظة التوتر أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع، وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها.

غير أن هذه المستويات وإن ائتلفت، مبدئيا، فإنها تختلف وتتفاوت تطبيقيا، وذلك تبعا للصعوبات والمراحل، وبما أن المستويين الأول والثاني يعنيان بتغيير الواقع مباشرة، فإن الصعوبات والمعوّقات أمامهما أكبر بكثير منها أمام المستوى الثالث، مستوى الحداثة الفنّية، الذي لا يعنى بتغيير الواقع، إلا بشكل مداور، ولهذا نرى أن إمكان التغيّر على هذا المستوى أسهل واسرع، وليس من الضروري أن يرتبط، عكسا أو طردا، بالمستويين الأوّلين.»